

الملف
آفاق المشهد في فلسطين

الخروج من المشهد

رائف زريق

حيفا: جسرٌ معلقٌ في الهواء فوق وادي الصليب

وادي الصليب. بيوت من حجر وشرفات. بيوت لا تفتح أبوابها. أُغلقت قبل خمسين عاماً ولا يُعاد فتحها. واحد من آخر الأدلة الظرفية على حادث وقوع الجريمة. بيوتٌ لا تفتح أبوابها وتكاد تخدعك اللغة فتتورط لتقول «بيوتٌ مهجورة». وأنت لا تعرف من يهجر من بيوتٍ مهجورة على وزن أموال متروكة.

كي يتم تسهيل حركة السير المؤدية إلى مركز «الهدار» والتي تمر بالطرق المتعرجة لوادي الصليب أقيم جسر هوائي عريض وشاهق غطى سماء الوادي. بمقدور السيارات الآن أن تعبر الوادي بسرعة فائقة، وسينجو المسافرون العجولون من مشهد بيوت الوادي العمياء تحملق في وجوههم. مائة متر يتم اجتيازها في خمس ثوان. خمسون عاماً يجري اختزالها إلى خمس ثوان. جسرٌ يوصل بين الأمكنة. جسرٌ يقفز فوق الأزمنة.

أما أولئك الذين يرفضون اختزال الأزمنة. ويشدّهم التفرس في الحالات النادرة، ويدخلون وادي الصليب. ففي انتظارهم مفاجأة... لافتة كبيرة تتدلى من جدار متساقط تعلن: «هنا سيقام حيٌّ للفنانين»...

جلادٌ ينتظر خمسين عاماً ويقرر أن يغفر لنفسه !

بيت الكرمة

هناك في الطرف الغربي لحي وادي النسناس العربي، وعند التقاء شارعين يقع بيت

الكرمة أو كما يسمونه «بيت هجيفن». وبيت الكرمة هذا هو مركز يهودي — عربي يُعنى بأمور التعايش والمصالحة و يبشر بالربيع. البناية تقوم عند التقاء شارع الصهيونية مع شارع هجيفن — الكرمة. شارع الصهيونية هو ذلك الشارع الذي سُمي يوماً ما بشارع الأمم، ثم تم اختزال الأمم الى أمة واحدة، ثم تم اختزال الاختزال ليتحول الى شارع الصهيونية. شارع هجيفن — بالعبرية — وتعني بالعربية الكرمة كان يسمّى هو الآخر بشارع الكروم، وتحول أيضاً الى شارع هجيفن — الكرمة.

برأيي أن هذه العادة في تحويل الجمع الى مفرد، والانتقال من الأمم الى أمة ومن الكروم الى كرمة، هي عادة قبيحة، خاصة إذا ربض في التقاء الشارعين مبنى يبشر بالتعايش والتسامح والتعددية.

عندما أقيم بيت الكرمة هذا كان على الحد الفاصل للوجود العربي حيفا. ومنذ سنين يقيم نشاطاته في الحي. لم أعرف عن أي نشاط له في منطقة الكرمل اليهودية المرفهة. لا أعرف لماذا نحن مطالبون بالاعتناء على حضورهم، لكنهم حتى غير مستعدين للاعتراف بغيابنا وغير مطالبين بالتعود على حضورنا.

خمسون عاماً ولم يُن حي جديد للفلسطينيين في حيفا. خمسون عاماً لم نطالب بحي جديد في حيفا. «بيت هجيفن» يستمر في نشاطه وهو لا يزال قابلاً على الحد الفاصل للوجود العربي في حيفا.

ملعب كرة القدم — كريات اليعيزر

ملعبٌ أخضر العشب داكنه. طقس آسيوي يجمع الفريق المحلي «مكابي حيفا» مع الفرق المنافسة. هنا لعب زاهي أرمل، نجم الكرة، ابن شفاعمر و قبل خمس عشرة سنة، ومنذ ذلك الحين يحظى الفريق بمشجعين عرب. أحد عشر لاعباً بزى أخضر وأبيض يراقصون كرة مدورة مع أحد عشر لاعباً آخر. جمهور المؤيدين ينقسم الى متحمس لمكابي حيفا، ومتحمس لمنافسه. مدرج الاستاد يعيد توزيع الحدود من جديد: الشباب العرب يحاورون مشجعي الفريق اليهودي داخل القفص السياجي ذاته. حاجزٌ حديدي يفصلهم من الناحيتين عن مشجعي الفريق الآخر. حاجزان حديديان يوحيان لجمهور المشجعين المحلي بوحدة المصير. وحدة الأخوة في القفص الشائك. سياج حديدي يقسم الناس من جديد. حيز يسمح للعربي أن يتدفق إليه كواحد منهم. ملعب كرة القدم مصنعٌ مؤقت «لنحن» مؤقتة وعابرة. المشجعون اليهود يستعيرون من «أشقائهم» العرب بعض الشتائم بلكنة بولندية، والمشجعون العرب يعيدون نفس الشتائم بنفس اللهجة. نوع من استعارة الاستعارة.

بين شاطئ البحر والكانيون

المثذنة الشامخة لمسجد الكبابير تطل من بعيد وعن علو شاهق لتحرس البحر. لا أحد يعيرها اهتماماً. المنتزه البحري يتمطى على امتداد الشاطئ الطويل، يكتظ المكان ليلاً ونهاراً. تواجه عربي خجل. لا أحد يصرخ على الشاطئ، ههنا يتحول الهمس الى صفة عربية قديمة. لا أحد ينده .. للهواء كثافة خاصة. بعض الشباب يسترقون النظر الى أجساد الفتيات نصف العاريات تلون رمل البحر الساخن ويتابعون السير ...

الكانيون — المجمع التجاري

حيزٌ مفضل. تواجه عائلي مكثف. عربات أطفال، استعادة لبعض من الثقة بالنفس. هنا تمر العلاقة بينك وبين المكان عبر قوتك الشرائية، فيحضر العربي بصفته مستهلكاً أولاً ثم بصفته عربياً، يتوسط المال الذي في جيبك بينك وبين الغرف التجارية وواجهات العرض وجيب صاحب الدكان. إحدى المرات القليلة التي يستطيع فيها العربي أن يكون «وقحاً» الى حد ما، دون أن يتورط. حضور شاحبٍ طفيفٍ مشوبٍ بغيابٍ أكثف.

الطريق المؤدية الى عرب النعيم

عرب النعيم قريةٌ غيرُ معترف بها، قائمة قبل قيام الدولة، وبالتالي فمن الأصح ان نقول إنها قرية مسلوقة الاعتراف. قرية مسلوقة الاعتراف يعني أن الدولة لا تعترف بها كمجمّع سكاني. الأرض القائمة عليها أعلنت كأرض زراعية، مع أن الاعلان جاء في حين كانت الأرض مسكونة بأهلها. لا اعتبار لهذا الوجود على الأرض. الطريق المؤدية الى عرب النعيم تخذعك. اشارات الطريق المتناثرة بكثرة على جوانب الطريق تدلك رغماً عنك عن وجود مستوطنتين يهوديتين: الأولى «يوفاليم» والثانية «أشجار». مستوطنتان لم يبلغ عمر الواحدة منهما أصابع اليدين، ولا يبلغ تعداد سكانهما سوى بعض مئات، مستوطنتان أقيمتا على أراض تمت مصادرتها من أصحابها العرب. لا وجود لأية اشارة تدلك على وجود قرية عرب النعيم. فهي غير قائمة في الخرائط أصلاً. وقد جرت العادة أن تمثل الخرائط شكل المكان على الورق، وأن تعكسه كما هو. اما في هذه الحالة فيحاول ورق الخرائط أن يغير المكان. وعلى المكان أن يتلاءم مع الخارطة بدل أن تصور الخارطة المكان. وبدل أن ترسم «عرب النعيم» في الخارطة تمثيلاً للواقع،

يجري محوها من الخارطة كمقدمة لمحوها في الواقع. كذلك الأمر مع اشارات الطرق، فما دامت دولة اسرائيل لا تستطيع أن تلغي وجود عرب النعيم من الوجود، فعلى الأقل تحاول الغاءها من ذاكرة المسافرين على الطرقات، وتعلن غيابها عن جغرافيا البلاد. تأخذك الطريق المعبدة الجميلة إلى مداخل مستوطنة «اشحار». الطريق إلى اليمين تدخلك الى مستوطنة «اشحار». وأما الطريق الى اليسار فتأخذك الى عرب النعيم. فجأة ينتهي الشارع المعبد ليستعاض عنه بشارع ترابي صخري، وعلى جسمك أن يعتاد منذ الآن وحتى وصولك الى عرب النعيم على ظروف ركوب الخيل وليس ركوب السيارة. دقائق معدودة فقط، بالكاد تكفي المرء أن ينتهي من تدخين سيجارة واحدة تفصل مدخل أشجار عن عرب النعيم. الا أنهما عالمان مختلفان.

والناس في عرب النعيم لا يبنون بيوتهم من اسمنت وحجر خوفاً من أن تهدمها الدولة. يبنون بيوتاً مؤقتة من الإسبست والزنك. منذ خمسين عاماً وهم يبنون بيوتاً مؤقتة. مرة، كانت هنا بيوت عادية من حجر وطين. هدمت الدولة كل البلد لكن أهلها أعادوا بناء بيوتها من جديد. بلدة كاملة بنت بيوتها من دون ترخيص، قرية غير قانونية. «محمد» الذي ضاق عليه المكان أضاف غرفة واحدة لبيته، بيته الأسبستي فاقد الماء والكهرباء. قدم «محمد» للمحاكمة. التهمة: بناء غير مرخص. محمد يتساءل: «وكيف يمكن أن أحصل على رخصة؟ فليس هناك أي إجراء يمكنني من أن أحصل على رخصة. أنتم أصلاً لا تعترفون بالمنطقة كمناطق سكنية، ولا خارطة هيكلية للقرية. أنتم المسؤولون عن غياب الخارطة».

لا خيار أمام محمد: ليس بمقدوره أن يثبت براءته. فهو لا يملك خياراته. لم يختر أن يكون مجرمًا. جريمة محمد لا تكمن في كونه بنى بيتاً بدون ترخيص، فخير الترخيص غير قائم. جريمة محمد أنه بنى بيته. بموجب هذا المنطق فقد ولد محمد ليكون مجرمًا. الدولة ومحمد يتبادلان الأدوار، الضحية والجلاد يتبادلان الأدوار. بدلاً من أن تكون الدولة متهمة بحرمان محمد من الماء، يصبح مجرد وجود محمد على أرضه جريمة. لا طريق أمام محمد لاثبات براءته سوى أن يمنحه الرب بعض صفاته الالهية، فيستطيع بناء بيته في الهواء ... او الرحيل !

المشيرة تتحول الى شارع

المشيرة قرية عربية في المثلت، تسكنها مئات العائلات، مؤخراً قررت وزارة الداخلية أن تقيم مجلساً محلياً يجمع المشيرة مع ثلاث قرى عربية أخرى في المنطقة. اسم المجلس المحلي «مجلس محلي عيرون». مكاتب المجلس في بلدة العفولة. من يذهب الآن

ليجدد بطاقة هويته او ليحصل على بطاقة جديدة، سيكتشف مفاجأة جديدة. في بطاقة الهوية سُجل اسم البلدة عيرون، اسم الشارع، المشيرفة. هكذا تتحول قرية كاملة الى شارع.

بالمقابل قرب قرية كفر كنا بنيت بعض الأبنية. قبل أن تسكن الأبنية سمي المكان «بيت ريمون». مفرق الطرق الذي يوزع السيارات سمي أيضاً «مفرق بيت ريمون». كل ذلك قبل أن تسكن البيوت. قرية تتحول إلى شارع وشارع يتحول إلى قرية. أحياناً يتكتم المكان على تاريخه، ويخفي ما كان فيه، ههنا يفضح المكان ويدل على ما ليس فيه.

الناصره، الطريق الالتفافي

هناك الناصرة، وهناك الناصرة العليا. نتسيرت عليت. أهل البلد يسمونها شيكون اليهود، أي حارة اليهود. مدينة أصبح تعداد سكانها حوالي خمسين ألفاً وأهل الناصرة يسمونها شيكون اليهود. فطرتهم ترفض سرقة الأسماء، فاخترعوا اسماً يليق بوجود المهاجرين الغرباء على أرضهم.

بين الناصرة ونتسيرت عليت شارع التفافي يصنع الحدود بين المكانين. شارع يصنع حدود الناصرة لكنه يفتح آفاق نتسيرت عليت. ذات الشارع ذو الحد الواحد يرسم للناصره حدوداً وبلد نتسيرت عليت. نهاية المكان وبداية لمكان آخر. شارع التفافي قاتل. شارع يستطيع بضربة قاضية ان يحيي ويميت.

يرتطم نظر الداخل الى المدينة بمنظر بنايتين ضخمتين على حد الشارع الالتفافي من ناحية نتسيرت عليت. بنايتان على قمة الجبل تماماً. مشرفتان متعاليتان باردتان، تراقبان الناصرة وحاراتها. تطلان ولا تطلان. تقطعان الشك باليقين، من هو سيد المكان. محاولة مكثفة لاختراع الطبيعة والسكان الأصليين معاً. البناية الأولى بناية بلدية نتسيرت عليت. بنيت منذ عامين فقط في مدينة عمرها اربعون عاماً، غير أبهة بأن جارتها الناصرة ابنة الفي عام. تستعيض عن الزمان بالمكان، وتحتمي من التاريخ بالجغرافيا. البناية الأخرى هي مبنى المحكمة المركزية ومحكمة الصلح. هنا تتنازل فكرة سيادة القانون عن معناها المجازي لصالح معناها الحرفي تماماً. بناءً يبيث القوة لكنه خائف قلق. بناءً لا ينام. بناءً متوجس.

على سفح إحدى تلال الناصرة المقابلة تطالعك ثلاث بنايات وسط منطقة خضراء: دير الراهبات البيض، كنيسة السالزيان، ومسجد النبي سعين.

في الناصرة

أنت تدخل الناصرة. بناءً اسمنتي مكثف. حركة سير خانقة، كراجات سيارات لافتاتها بالعبرية. هنا وهناك بيوتٌ أرستقراطية. مكانٌ ما، لا هو بقرية ولا بمدينة. لا حميمية الريف، ولا فضاء المدينة. مكانٌ يخلو من صياح الديك، ومن مقاهي المثقفين. مكانٌ ما، لا علاقة له بالحقول وبراءة الأرض، ولا بالنواصي والسينما والساحات. منتصف المسافة بين ما كان وما لن يكون. بين القرية الضائعة والمدينة الغائبة.

وان تسكن الناصرة يعني أن تكون بلا عنوان. لا أسماء للشوارع ولا أرقام. عليك أن تكون إما صندوق بريد، أو اسماً ما في حي الورد، أو حي الصفاة، أو بير الأمير. عليك أن تقبل بموقعك المبهم.

والناصرة مدينة بلا رصيف. ذلك الحيز الذي يمكن والدأ من أن يجر عربة طفله، ويمكن امرأة من التسكع لتتملى من واجهات الحوانيت. ولترتشف فنجان قهوتها على مهل اذا أرهقها المدى.

الناصرة مدينة بدون حالة رصيف، وبدون مزاج الرصيف. تلك الحالة التي تجمع فيها المدينة بعض أفرادها بعد أن ذررتهم، سلختهم عن جماعاتهم العضوية الوراثة لترتبهم في فوضى الرصيف. حيزٌ يتمكن الواحد فيه من أن يمارس مجهوليته لدقائق، وأن تلتقي غربته مع غربه أخرى مؤقتة لتصنع ألفة مؤقتة، ولتنسج حالة ترقب حاملة: وجه جميل مبتسم، مقهى يغريك بفنجان قهوة، حملة تنزيلات كاذبة. الرصيف مصنع المفاجآت الصغيرة.

الناصرة تخلو أيضاً من ساحة عامة، من منتزه، من أي بناية أو مكان عام. مكان لا يملكه أحدٌ لكنه ملك الجميع في نفس الوقت. مدينة تخلو من فضاء المدينة، ذلك الحيز المفتوح الذي يذرر الأفراد، بحيث يكتسب الفرد خاصيته وتفرد الخاص وشخصيته غير القابلة للتكرار في فضاء المدينة، ذلك الفضاء الذي يولي الأهمية الأولى لإرادات الأفراد ورغباتهم، ويحررهم من انتماءاتهم المرسومة مسبقاً. نحن هنا لا نزال في انتظار المدينة. وفي انتظار رصيفها وساحاتها. رصيفٌ يفرقنا بدايةً ويجمعنا نهايةً.

ماذ الذي تبقى من الحيز العام جسداً وفكرة؟ من يملك المكان العام؟ ومن يحلم به ومن يقوم بهندسته؟ إن أول ما يلفت نظر مراقبي هندسة المكان في اسرائيل هو الطابع المركزي للملكية وللتخطيط من ناحية الدولة مقابل غياب المركز لدى الفلسطينيين. فمعظم الأراضي في اسرائيل (٩٣٪ من مجموع أراضي الدولة) هي ملكية عامة. ملكية

الدولة أو ملكية الصندوق اليهودي – الكيرن كيمت، في المقابل تغيب ظاهرة الملكية العامة للأراضي لدى الفلسطينيين. تغيب الملكية العامة لدينا وتغيب الملكية الخاصة لديهم.

وهناك طابع مركزي قطري للتخطيط يتولاه المجلس القطري للتخطيط ودائرة أراضي إسرائيل، إضافة إلى مؤسسات قطرية مثل دائرة حماية الطبيعة وغيرها. تتعامل هذه المؤسسات مع التخطيط بشكل يسهل عليها رؤية الصورة العامة، جاعلة من المكان، كل المكان، وحدة واحدة في ظروف تناغم وانسجام، انسجام أعضاء الجسد الواحد الذي يخضع لمركزية عقل واحد. وكل هذه المؤسسات تستهدف الفلسطينيين وتنشط ضده.

في المقابل يبرز غياب المركز لدى الفلسطينيين في إسرائيل. فهم يواجهون هذه المركزية فرادى، إما كل قرية أو كل فرد على حدة بدون إمكانية تنسيق حقيقية، وبدون مهنيين متفرغين تماماً لهذه الضرورة. هذا الوضع يقلل الثقة بإمكانية عمل جماعي، ويزيد أهمية الدفاع عن الفردي، المحلي، والخاص، ويصبح المكان «فلسطين» مجموعة لا نهائية من الأمكنة، تتصارع أحياناً فيما بينها، ولا تعرف ما الذي يجمعها.

هكذا يغيب الجسم العام الذي كان من المفروض أن يدافع عن الحيز العام (مكان مادي)، ويتركز الدفاع في الدفاع عن الحيز الخاص. لذلك ترى سيارات مرسيديس تسير في شوارع محفرة، وتشاهد أحذية أديداس دون ملاعب رياضية. يبقى الحيز بدون أهل يدافعون عنه.

لم يعرف الفلسطينيون في تاريخهم المعاصر لحظة تبلور الإرادة العامة التي تمارس ذاتها في المكان العام. مرة كان المكان العام للأتراك ومرة للانكليز، أما الآن فالمكان العام يملكه الآخر الذي تقوم بينه وبين الفلسطيني حالة إقصاء.

والملكية، خاصة كانت أم عامة، تفترض ثنائية الموضوع والذات. الموضوع – يعني ذلك الحضور المادي أو المعنوي للشيء الذي يقبل نظرياً أن يكون متمكناً من قبل ذات معينة، كالأرض والسيارة والأسهم التجارية والكتب. كلها موضوعات للملكية. كي تقوم علاقات الملكية فهي بحاجة لذوات مالكة: الأفراد والشركات والذوات القانونية الأخرى. وكي تكون الملكية عامة يجب أن يسبقها المدى المفتوح الذي ينتظر حضورنا، مع فكرة غياب المركز بمفهومه الثقافي السياسي، ذلك المركز الذي من شأنه أن يمثل وأن يبلور الإرادة الجماعية للفلسطينيين في إسرائيل: – غياب المركز الأخلاقي السياسي الموجه، غياب هيئة تمثيلية منتخبة مباشرة تمثل هذا الجمهور، وتعكس إرادته ضمن كلانية فلسطينية، غياب «عقد اجتماعي» خاص بالفلسطينيين يضبط المشترك والمختلف محولاً الاختلاف إلى تنوع ضمن وحدة. غياب المشروع وهذا ما يمكن تسميته بتفكك الكلانية

السياسية.

أي أنه مقابل غياب المكان العام، يغيب الزمان العام. والزمان العام، هو زمان المجموعة، نبض حياتها، محور الزمن الذي تتحرك فيه المجموعة، إيقاعها التاريخي وصورتها المستقبلية المتخيلة لذاتها، وقدرتها أن تصبح أحلاماً جماعية، أو قل باختصار القدرة على السفر في الزمن. أن تسافر إلى الورا لتستحضر ذاكرة وأن تسافر إلى الأمام لتصنع حلماً.

وعملية استحضار الذاكرة — السفر إلى الورا في الزمن — وعملية صناعة الحلم — السفر إلى الأمام في الزمن — هما شكلان متباينان لحضور واحد، هو الحضور في الزمان وقدرة الحركة فيه.

فالحلم ليس لحظة مستقبلية فقط إنما خيط يوصل بين اللحظة الراهنة وبين لحظة ما متخيلة في المستقبل. الحلم محاولة لتتبع مسار تحول الواقع إلى واقع أفضل. وبكونه كذلك فالحلم يحتاج إلى الذاكرة. لا يمكن صناعة الحلم مع اختزال الذاكرة. لا صورة للغد إن لم يحضر الماضي في الحاضر. لا أحلام للعدم ولا أحلام من العدم. الأحلام للذوات فقط. هي امتداد للذاكرة ولا تستطيع أن تعيش في قطيعة معها وإن كانت مرشحة لتجاوزها.

كل هذا واضح وجلي، إلا أن الجانب الآخر صحيح أيضاً. فعملية استحضار الماضي تتم الآن. هي عملية انتقائية. الماضي لا ينتظر كما ينتظر المسافرون في ردهات انتظار القطارات. ونحن نختار من هذا الماضي ما نشاء من صور ومشاهد وشخوص. عملية استحضار الماضي تتم الآن في سياق البحث عن الحلم. محاولة البحث عن المستقبل تفتح لك أبواب الماضي. فكما يحتاج المستقبل إلى الماضي يحتاج الماضي إلى المستقبل. لا تعيش الذاكرة بذاتها ولذاتها، تعيش الذاكرة في سياق صياغة الحلم، وهكذا تصبح عملية صياغة الحلم شرطاً ضرورياً لقدرتنا على صيانة الذاكرة.

ومن هنا فإن محاولة المحافظة على المشهد والدفاع عنه أو «استرجاع» المشهد الذي كان ليست عملية مفروغاً منها. أحياناً يشكل الماضي وما تبقى منه من مشهد يدل عليه عبئاً ثقيلاً، وتشكل الذاكرة أيضاً عائقاً أمام التعامل مع الواقع المعاش، ويصبح طمسها أفضل الطرق لمعايشة المشهد الراهن، وفقط قدرتنا على الحلم بمشهد «جديد» مرشحة لإخراج المشهد الذي كان من صنميته الثقيلة.

وبالتالي وكما يمكن أن نتحدث عن تفكك المكان، من الممكن أن نتحدث عن تفكك الزمان. وهكذا يصنع المكان المفكك والمجزأ والمهشم فكراً مجزئاً ومفككاً، والشوارع الالتفافية لا تصنع حدوداً للمكان فقط إنما تخلق أيضاً في الذهن حدوداً حول المكان. من ناحية

أخرى فإن غياب ذهنية الوطن والحق في الحيز العام تضعف الطاقة الكامنة لدى الفلسطينيين في اسرائيل للتوسع في المدى المفتوح، باعتباره وطناً ينتمي إليه ويحق له التواجد فيه أينما شاء ومتى شاء. وبما أن قدرتنا على الانتقال في الزمان تعطي المكان بعداً آخر، فإن قدرتنا على الانتقال من مكان لمكان، تعطي الزمان بعداً آخر.

الناصرة